﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: 223]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

موقع هذه الآية الكريمة ممَّا قبلها: موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني أنّ المأتى الذي أمركم اللّه به هو مكان الحَرْث، ترجمة له وتفسيرًا، أو إزالة للشبهة، ودلالة على أنّ الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النَّسل لا قضاء الشهوة. فلا تأتوهنّ إلا من المأتى الذي يتعلق به هذا الغرض[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرْثَكُمْ﴾: الحَاءُ وَالرَّاءُ وَالثَّاءُ أَصْلَانِ مُتَفَاوِتَانِ: أَحَدُهُمَا الجَمْعُ وَالكَسْبُ، ومنه حَرْثُ الزَّرْع. وَالمَرْأَةُ حَرْثُ الزَّوْجِ، فَهَذَا تَشْبِيهٌ، وَذَلِكَ أَنَّها مُزْدَرَع وَلَدِهِ[2]، أَي: يكون وَلَده مِنْهَا كَأَنَّهُ يَحرُثُ ليزرع[3]. والحَرْث: قَذْفُك الحَبَّ في الأرض وتهيؤها للزرع[4]. وهو أيضًا: النِّكاح هَكَذَا فُسِّرَ فِي التَّنْزِيل فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[5]. وفُسِّرَ كلُّ (حرثٍ) في القرآن بأنَّه الزَّرْع؛ لأنه يخرج من الأرض[6].

2) ﴿وَقَدِّمُواْ﴾: القَافُ وَالدَّالُ وَالمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يدلّ عَلَى سَبْقٍ[7]. والقَدَم: كلُّ ما قدمت من خير أو شر. ومن أسماء الله تعالى (المقدِّم) هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَرَثَ).
(3) ابن سيده، المحكم: (حَرَثَ).
(4) الخليل، العين: (حَرَثَ)، والراغب، المفردات: (حَرَثَ).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حَرَثَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حَرَثَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَدَمَ).

مواضعها، فمن وفّق لأسباب التقديم وعمل بها، واستحقَّ التَّقْديم قدَّمه[1]. وقدّم الشَّيء: جعلَهُ أمامَهُ، وأسبَقَهُ أمَامَهُ[2]. ومعنى الآية: التقرُّبُ إلى اللّهِ بفعلِ الخيراتِ.

3) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: الوَاوُ وَالقَافُ وَاليَاءُ: تَدُلُّ عَلَى دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِهِ[3] ويوجّه عموم معناه إما على الحفظ، وإما على الحذر وكلاهما يعود إلى المعنى الأصل. فوَقاهُ اللّه وِقاية، أي حفظه[4]، وصانه، وحماه، وستره[5]، ووقيت الشَّيء واتّقيته: حَذِرْتُه. وَالِاسْم: التَّقْوَى. وَقَوله تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] أَي: هُوَ أهل أَن يُتَّقى عِقَابه، وَأهل أَن يُعْمل بِمَا يؤدِّي إِلى مغفرته[6].

ورجل تقيٌّ، وجمعه أتقياء، معناه: أنّه موقٍ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح[7]. فالتقوى إذن جعلُ النَّفْس في وقاية مما يُخاف، وهو في تعارف الشرع حفظ النَّفْس عمّا يُؤْثِمُ، وذلك بتركِ المحظُور[8]، والخوف من عقاب اللّه إن حصل انحرافٌ، وهو مقصد اللفظة، ومؤدّى معناها.

4) ﴿مُّلَٰقُوهُ﴾: اللَّامُ وَالقَافُ واليَاءُ: أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أحدها: تَوَافِي شَيْئَيْنِ، ومنه: اللِّقَاءُ، والمُلَاقَاةُ: تَوَافِي الِاثْنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ[9]. فاللَّقِيَّانِ: كل شيئين يَلقَى أحدهما صاحبه[10]. ويقال ذلك في الإدراك بالحس، وبالبصر، وبالبصيرة. وملاقاة اللّه ﷻ عبارة عن القيامة، وعن المصير إليه. أي: يوم القيامة، وتخصيصه بذلك لالتقاء من تقدّم ومن تأخّر، والتقاء أهل السَّماء والأرض، وملاقاة كل أحد بعمله الذي قدمه[11]. فاللقاء يراد به القُرْب ممَّن يلقاه على وجه يزول الحجاب بينهما[12].

(1) ابن الأثير، النهاية: (قَدَمَ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قَدَمَ).
(3) ابن فارس، المقاييس: (وَقَيَ).
(4) الجوهري، الصحاح: (وقى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وَقَيَ).
(6) المحكم، ابن سيده: (الْقَاف وَالْيَاء وَالْوَاو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وَقَيَ).
(8) الراغب، المفردات: (وقى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لَقِيَ).
(10) الخليل، العين: (لقي).
(11) الراغب، المفردات: (لقى).
(12) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/492.

5) ﴿وَبَشِّرِ﴾: البَاءُ وَالشِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ: ظُهُورُ الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ. وأصل البِشَارَة بِالخَيْرِ، وقد تستعمل للشر[1]. وبشَّرت الرَّجل: أخبرته بخبر سارٍّ بَسَطَ بَشَرةَ وجْهِه، وذلك أنَّ النَّفْس إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّم فيها انتشارَ الماء في الشَّجر، واستبشرَ: إذا وجدَ ما يبشِّره من الفرح[2]. وكل ما ورد من الفعل (بَشّر) في القرآن الكريم فهو للخير، أو الشَّرّ بحسب السِّياق[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إباحـةُ هيئاتِ التَّمتُّعِ وتقييدُ المأْتَى

رُوِيَ أنَّ اليَهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدُها أحول، فذُكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ: فقال كذَبَتِ اليهود ونزلت الآية[4].

فالآية الكريمة تبيحُ كلَّ أوضاع الجماع وهيئاته، وتقرِّرُ بأنَّ نساءَكم موضعُ زَرْعٍ لكم، تضعون النطفة في أرحامهن، فَيَخْرج منها الأولاد بمشيئة اللَّه، فجامعوهن في محل الجماع فقط، وهو القُبُل بأي كيفية شئتم.

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ الشَّارع لا يقصدُ من التَّقييد - في ضوابط العلاقة الزوجية - إعْناتَكم ومنعَكُم من لذَّاتِكم، ولكنْ يُريد ليُوقفَكُم عند حدود المصْلَحة والمنفعة؛ كيلا تضعوا الأشياء في غير مواضعها فتفوت المنفعة وتحلَّ محلَّها المفْسَدة، ويذكِّر في هذا المقام الذي تغلب في الشهوة على العقل، بأن يقدِّم المسلم أعمالًا صالحة لنفسه بمراعاة أوامر اللَّه، والخوف منه، واعلموا أنكم ملاقو اللَّهِ للحساب يوم القيامة. وبشِّر المؤمنين - أيها النبيُّ - بما يُفْرحهم ويسرُّهم من حسن الجزاء في الآخرة[5]. وقد استحسن تعالى مِنْ بين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَشَرَ).
(2) الراغب، المفردات: (بشر)
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بَشَرَ).
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(5) رضا، تفسير المنار: 2/287، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.

ما استحسن هنا طلبَ النَّسْل المدْعوَّ إليه بقوله ﷺ: "تناكَحُوا تَكْثُرُوا، فإنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ "[1]، وقال: "خَيْرُ نِسَائِكُمُ الوَدُودُ الوَلُودُ "[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّذْييل في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾:

تَأْنِيسُ المخَاطَبِين والارتِفَاقُ بِهِمْ

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، هذه الجُمْلة تَذْييلٌ ثانٍ لجملة: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 222] قُصِدَ به الارتفاق بالمخاطبين والتَّأنيس لهم؛ لإشعارهم بأنَّ منعَهم من قربان النِّساء في مدّة المحيض منعٌ مؤقتٌ لفائدتهم، وأنَّ الله يعلم أنَّ نساءَهم محلُّ تعهُّدهم وملابستِهم، ليس منعُهم منهنَّ في بعض الأحوال بأمرٍ هيِّن عليهم لولا إرادة حفظِهم من الأذى[3].

بيانُ موقعِ الجُمْلَةِ ممَّا قَبْلَهَا:

بَـيَـانُ مَـكَـانِ الإِتْيَانِ وَعِلَّتِهِ

مَوْقِعُ قولِه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مما قبله البيان والتَّوضيح لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولذا فُصِلَت عمَّا قبلَهَا؛ لما بينهما من كمال الاتِّصالِ، والمعنى: أنّ المأتى الذي أمركم اللَّه به هو مكان الحَرْث، ترجمة له وتفسيرًا، أو إزالةً للشُّبهة، تنبيهًا على أنَّ المطلوبَ الأصليَّ في الإتْيان هو طلبُ النَّسل لا قضاءُ الشَّهوة، فلا تأتوهنّ إلَّا من المأتى الذي نيطَ به هذا المطلب[4].

سرُّ فَصْلِ الجُمْلَةِ عمَّا قبلَهَا:

دَفْـعُ وُقُـوعِ الخَلَلِ فِي النَّظْمِ المُؤَدِّي إِلَى لَبْسٍ فِي المَعْنَى

وقعت هذه الجملة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ متّصلةَ المعنى بجملة ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على وجه البيانِ لها، ولم يقع العطفُ بينهما؛ لسببَيْن:

(1) مصنف عبد الرزاق: 6/173، حديث رقم: (10391).
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/459، والبيهقي، السنن الكبرى، حديث رقم: (13860).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/370-371.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/266، والقزويني، الإيضاح، ص: 195-196، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/186.

أحدهما: أنَّ مجيءَ الجملةِ بيانًا من مقتضياتِ الفصلِ.

والآخرُ: وقوع جملتي اعتراض متعاطفتين بين الكلامين المتَّصلين في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فهذان اعتراضان بجملتين وقعا بين جملتين متّصلتين معنًى، ولذلك استُؤْنِفَتِ الآية ولم تُعْطَف على الجُمْلة المتَّصلة به معنًى[1]؛ لدفع ما قد يعتري الجُمْلة بالوصل من خَلَلٍ في النَّظم مؤدَّاه إلى لبْسٍ في المعنى.

سببُ تقديمِ جملة التَّعليلِ على جملةِ الحُكْم:

ترتُّبُ الحكمِ على العِلَّة إحكامٌ لنسيجِ النَّظمِ

تعدُّ جملة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مقدَّمةً لجملة ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، وفيها معنى التَّعليل للإذن بإتيانهن أنَّى شاءوا، والعِلَّة قد تُجعل مقدَّمة، فلو أُوثر معنى التَّعليل لأُخِّرتْ عن جملة ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، ولكن أُوثر أنْ تكون مقدَّمة للتي بعدها؛ لأنَّه أحْكَمُ نسيجًا للنَّظْم، ولتَأْتِي عَقِبَهُ الفاء الفصيحة[2]، وهو من تقديم السَّبب على المسبَّب بوصفه عِلَّة بناءِ الحُكْم وتأسيسه؛ وفي ذلك تقنينٌ لصورة الإتْيان وهيئته بلفظ الحَرْث ابتداءً، لدفع توهّم الإتْيان في غير موضعه.

سِرُّ تعريفِ النِّساء بالإضافة في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ﴾:

مُراعاةُ المَرْغُوبِ فيهِ والمَرْغُوبِ عَنْهُ فِي تَلْوِينِ الْخِطَابِ

عُرِّف لفظُ النِّساء هنا بإضافته إلى ضميرِ الأزواج، وفي الآية السَّابقة عُرِّفَ باللَّام، والفرق بينهما: أنَّ الحديث هنا عن أمرٍ مرغوبٍ تسعى له الأنفس، وتستلذُّ به، بما يتحقَّق به من سكنٍ، وقُربٍ، وزيادة أُنْسٍ، وَوُدٍّ؛ فعبَّر عنه بإضافته إلى آلة تحقيق ذلك وهو (الزّوج)، وأمَّا الحديثُ عنِ المحيض في الآية السَّابقة؛ فهو حديثٌ عمّا تَنْفُرُ منه الأنفسُ وتعافه كراهةً، وحُرمةً، والشَّأنُ فيه أنَّه ليس مظنَّةَ قُرْبٍ واتّصالٍ، فعُبِّرَ بالنِّساء (الزَّوجات) معرَّفًا باللَّام دون تعريفِهِ بالإضافةِ إلى الأزواج، مراعاةً لما تأنف منه أنفسُهم.

(1) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 171-170.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/371.

إِبَاحَةُ الِاسْتِمْتَاعِ فِي حُدُودِ الشَّرْعِ

ويَحْتَمِلُ أن يكون ذلك لِما في الإضافة من معنى المُلْك، وكأنّ الزَّوجات ملكٌ لكم تمتَّعوا بهنَّ كيفما شئتُمْ بما أمرَ الله تعالى، وفي حدود شرعه، وذلك أدعى إلى التَّرغيب فيهنَّ، والسَّكن إِلَيْهِنَّ، ولا سيَّما بعدما سبَّبه الحَيْضُ لهنَّ ولأزواجهنَّ من أذى، ويعزِّزُ هذا المعنى لامُ الاختصاص في ﴿لَّكُمْ﴾.

شِدَّةُ صِلَةِ الزَّوْجِ بِامْرَأَتِه كَشِدَّةِ صِلَةِ المُزَارِعِ بِحَرْثِهِ تَعَلُّقًا بِهِ وَرِعَايَةً لَهُ

ويُزَادُ على ذلك أنّ لفظ النِّساء، لَمَّا اقترن بالحَرْث؛ أشْعرَ بقوّة صلة المُزارع بحرثه، وتعلّقه به، ورعايته له، ولذلك ناسبَ إضافتَه إلى الأزواج؛ لِمَا جرت به العادَةُ مِن مباشرة الرِّجالِ لهذا الضَّرْبِ مِنَ العملِ.

نُكْتَةُ جَمْعِ المبتدَأِ وإفرادِ الْخَبَرِ بصيغةِ المصدَرِ:

بيانُ موضِعِ الوطءِ

أُفْرِدَ الحَرْث في الخبر عنِ النِّساء في قوله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ﴾، وجُمِعَ المبتدأُ؛ لأنَّه مصدرٌ بمعنى اسم المكان وهو في معنى المفعول، أي: محروثات، ولذلك لزم الإفرادَ والتذكيرَ؛ لكونه الأفصحَ[1]، ومع تصريح بعضِ أهل العلم بأنَّ المصدر هنا بمعنى المفعول، إلا أنَّ للمصدر بهيئته غرضًا مِن هذا الإخبار يتمثَّل في المبالغة، فهو أجمع تمكينًا لهذا الموضع وتوكيدًا؛ بجعل النِّساء ذاتَ الحدثِ، أي: أنهنَّ تحوّلن إلى حدث مجرَّد من الذَّات وهو الحَرْث، وكأنَّهنَّ في الحقيقة مخلوقاتٌ من ذلك الفعل؛ وذلك لكثرة تعاطيهنَّ له، واعتيادهنَّ إيَّاه، فهو معنًى متصوَّرٌ في نفوسِهِنَّ[2]، وذلك أنسبُ لسياق التَّرغيب في موْضِعِ الوطء، والإتْيان من موضع النَّسل.

دِلالة الحَرْثِ بينَ التَّنكير والتَّعْريف:

في التَّنكيرِ عمومٌ، وفي التَّعْريف اختصاصٌ بما أضيفَ إليهِ

جاء ذكر الحرثِ في قوله: ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ نكرةً؛ لأنَّه الأصلُ في الخبر؛ لكونِهِ كان مجهولًا، فهو محطُّ الفائدةِ، فأفادتْ نسبتُه إلى المبتدأ جوازَ الاستمتاع به شرعًا، وورد ذِكْرُ الحرثِ في قوله:

(1) العكبري، التبيان: 1/178، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/93، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/423.
(2) ابن جنّي، الخصائص: 3/189، 202، 259، والسَّامَرَّائِّي، معاني النحو: 1/193-194.

﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ معرفةً؛ لأنَّ في الإضافة تحويلًا على شيءٍ سبَقَ، واختصاصًا بما أضيف إليه، وإذا تقدَّمت نكرةٌ وأُعيد اللَّفظُ مرادًا به المعنَى السَّابقُ، فلا بدَّ أنْ يكونَ اللَّفظُ معرفةً، إمَّا باللَّام، كقوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: 16]، وإمَّا بالإضافة كما في الآية[1]، والتَّعريف بالإضافة هنا أقوى في الدَّلالة على القُرْبِ، واستحقاق الإتْيان، وفي التَّخصيص بعد التَّعميم مزيدُ توضيحٍ وعنايةٍ.

نُكْتَة العدولِ عنْ إضافةِ الحَرْثِ إلى ضمير المخاطَبينَ في الموضِعِ الأوَّلِ، وإضَافَتِهِ في الموضِعِ الثَّاني:

تخليصُ النِّساءِ حرثًا لـلأزواج؛ لاقتضاء السِّياقِ لَهُ

عُدِلَ عن إضافة الحَرْثِ إلى ضمير الأزواج، فلم يقل: (حرثكم)، وقرنَ ضميرَ المخاطب ﴿لَّكُمْ﴾ بلام الاختصاص؛ مبالغةً في تخليصِهنَّ حرثًا للأزواج مقصودًا بهنَّ جانبهُنّ لا غير، وأنهنَّ خلَصنَ لهم، أي: أنّ كلَّ ما فيهنَّ حرثٌ لكم، ووردَ لفظ الحرثِ مكرَّرًا مضافًا إلى ضمير المخاطَبينَ، فقال: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾؛ لأنّه في موضع تحديد وجه الإتْيان، وكيْفيّته، ويناسبُ ذلك إضافتهنَّ إلى الأزواج.

وجهُ تشبيهِ النِّساء بالحَرْث:

بالنِّساءِ زرعُ ما فيه بَقَاءُ نَوْعِ الإنْسَانِ، كَمَا أنَّ بالأرضِ زرعَ ما بِهِ بقاءُ أَشْخَاصِهِمْ

في قول اللّهِ تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ﴾ تشبيهٌ بليغٌ؛ فقد شُبِّه النِّساءُ بالحَرْث، فالمشبه (النِّساء)، والمشبَّه به (الحَرْث)، وحُذِفَت أداة التَّشبيه وهي الكاف، وفيه أيضًا تشبيهٌ للوطءِ بالزِّراعة، والنّطفة بالبذرة، والرَّحِم بالأرض، والولد بالنّبات[2]، ووجه التَّشبيه بحرث الزِّراعة وأحوالها وحوائجها ولوازمها؛ لكونها مظنَّة ديمومة النَّوْعِ الإنسانيّ بالتَّناسل، فبالنِّساءِ زرعُ ما فيه بقاء نوعِ الإنسان، كما أنَّ بالأرض زرعَ ما به بقاءُ أشخاصِهم[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181.
(2) الكرماني، غرائب التفسير: 1/214.
(3) الراغب، المفردات: (حرث).

لَا تَكُونُ لِلذُّرِّيَّةِ إِلَّا بِإِتْيَانِ مَوْضِعِ الْوَلَدِ

والتَّشبيهُ البليغُ المذكورُ آنفًا متفرِّعٌ على تشبيهِ النُّطَفِ المُلْقَاة في أرحامهنَّ بالبذور؛ حيث إنّ كلًّا منهما ينمُو في مستودعِه، ويكون به البقاء والتَّوالد، ومترتِّبٌ عليه ترتُّبَ اللَّازم على الملزوم، ويسمَّى تشبيهًا تمثيليًّا على سبيل الكناية[1]؛ وذلك بالكنايةِ بالحَرْث عنِ النِّكاح، أي: فانكِحوا مُزْدَرَعَ أولادِكم[2].

فالنِّساء مُزْدَرَعُ الذُّرِّيّة، كما أنّ الحَرْث سبب للنَّبات وموضعٌ له، ولا تَكَوُّنَ لهذه الذُّرِّيَّة إلَّا بإتيانِ موضع الوَلَدِ؛ لتُلْقى في أرحامهنَّ النُّطف، كشأنِ الحَرْث في حاجته إلى بذورٍ مآلُها إلى النَّبْتِ.

لِكُلٍّ مِنَ الزَّرْعِ وَالْحَمْلِ وَقْتٌ مَخْصُوصٌ

وفي التَّشبيه بالحرث وجوه أخرى:

منها ما هو زمانيٌّ؛ إذ لكلٍّ منهما وقتٌ خاصٌّ تُحَصَّلُ فائدته فيه، فالزَّرع في موسمه، والحمل في وقت التَّبييض.

ومنها: امتداد إباحة التّصرف في الأرض، بإتيان حرثها بالطَّريقة التي يراها نافعة للإنبات، وكذا الأمر في المرأة؛ إذ يُباح إتيانها على كلِّ حالٍ ووقتٍ إلَّا ما حُرِّم في الشَّرعِ.

المرأةُ تمدُّ الوجودَ الإنسانيَّ بعُنْصِرِ تكوينِهِ، والأرضُ تمدُّه بأسبابِ حياتِهِ

ومنها: ما كان بين الزوجة وبين الأرض الخِصْبة المُنْتِجة من حيث إنّ كليهما يمدُّ الوجودَ الإنسانيَّ؛ فالزَّوجة تمدُّه بعنصر تكوينِه وإنشائه، والأرض تمدُّه بأسباب حياته من زرع يكون به بقاؤه[3].

نكتةُ التَّعْبير بالحَرْث دُونَ الزَّرْع:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

الفرق بين الحرث والزَّرع أنَّ الحَرْثَ: إلقاءُ البذور وتهيئة الأرض، والزَّرْع مراعاتُه وإنباتُه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63 - 64] فأثبتَ لهم الحَرْث، ونفى عنهم الزَّرْعَ، وقد جعلَ اللّه تعالى النِّساء مُحترثًا للرَّجل، وجعلَ

(1) الشهاب، عناية القاضي: 2/307، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/736.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/284، أبو حيّان، البحر المحيط: 2/180.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/736، طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/498.

له قوَّة النِّكاح حفظًا للنَّسل[1]، وبهذا المعنى تقطع لفظةُ (الحَرْث) بأنَّ الإباحة لا تقع إلَّا في الفرج خاصّة؛ إذ هو المُزْدَرَع[2].

دِلَالَةُ حَرْفِ (الْفَاءِ):

التَّمْهِيدُ لِلْأَحْكَامِ بِمَا يُحَسِّنُ قَبُولَهَا

الفاء في ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ الفصيحةُ؛ لبِنَاءِ ما بعدها على تقرُّرِ أنَّ النِّساء حرْثٌ لهم، لا سيَّما إذَا كانوا قد سألوا عَن ذلك بلسان المقال أو بلسان الحال[3]، فيكون تشبيه النِّساءِ بالحرثِ تمهيدًا للحكم المذكور ههنا من الأمر بالإتيانِ في موضع الحرثِ.

التَّعْبير بالإتْيانِ عن طريق الكناية:

مِنْ مَوَارِدِ الْأَدَبِ: التَّعَفُّفُ بِاللِّسَانِ كَمَا يُتَعَفَّفُ بِالْجَوَارِحِ

(الإتْيان) في هذا الموضع: كنايةٌ عن الجماع[4]، فلما عبّر عنهنَّ بالحَرْث عبّر عن مجامعتهنَّ بالإتْيان، وهو بيانٌ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[5]، وعبَّر بلفظ الإتْيان لما يتضمَّنه من معنى القصد إلى الشَّيء، وبلوغ منتهاه، ومن عادة العرب وشأنهم: استعمالُ الكنايات في الأشياء التي يُسْتَحْيَى من ذكرها، قصدا إلى التعفُّف باللِّسان، كما يُتَعَفَّفُ بسائر الجوارح[6].

مِنْ كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ: تَوْسِيعُ الْإِبَاحَةِ وَتَضْيِيقُ التَّحْرِيمِ

فإنَّ الله تعالى لَمَّا عبَّر عنهنَّ بالحَرْث عبَّر عن مجامعتهنَّ بالإتْيان، أي: فأتوهنَّ كما تأتونَ أراضيَكُم التي تُريدونَ أنْ تحرثوها، من أيِّ جهةٍ شئتم، لا تُحْظَرُ عليكم جهةٌ دون جهة ما دامت مواضع للإنبات، والمعنى: جامعوهنَّ من أيِّ جهةٍ شئتم ولا تبالوا بقول اليهودِ، فَفِي تخصيص (الحَرْث) بالذِّكر تعميمُ جميعِ الكيفيَّات الموصِلة إليه[7]، وفي هذا توسيعٌ لِلْمُبَاحِ كما هو مقتضى سَعَةِ رحمةِ اللهِ تعالى.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/458.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/299.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/371.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/398.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/223.
(6) النويري، نهاية الأرب: 3/145.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 2/120.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ:

دَفْعُ تَوَهّمِ إِرَادَةِ غَـيْرِ مَـوْضِـعِ الإِنْـبَـاتِ جَمْعًا بَـيْنَ الْإِشَـارَةِ وَالتَّصْرِيحِ

أُعيدَ لفظُ الحَرْث، ولم يَرِدْ: فأتوه؛ ليراعيَ المعنى المقصودَ بذلك، لئلا يتوهَّم ما يتصوَّره قومٌ لم يُنْعِمُوا النَّظر[1]، فقولُه: ﴿حَرْثُكُمْ﴾ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ لما يُفيدُهُ لفظ الحَرْثِ من الإيماء إلى المحلِّ المخصوصِ الذي تنبتُ فيهِ البذور وينبتُ فيه[2]، ليقعَ الخطابُ في الآية الأولى بالإشارة لأولي الفَهْم، وبالتَّصريح في هذه لأولي العِلْم؛ لأنَّ الحَرْث إنما يكون في موضع الزَّرْع[3].

بيانُ التَّشبيه التَّمثيلي في ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾:

إِبَـاحَـةُ عُـمُـومِ الْإِتْـيَـانِ زَمَـانًـا وحالًا

معنى قولِ اللّه تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: جَامعوهنَّ متى شئتم، أو كيف شئتم بعد أنْ يكون المأتى واحدًا وهو موضع الحَرْث، وهو تشبيه تمثيلي، أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تَحْرثوها من أيِّ جهة شئتم لا تُحْظَرُ عليكم جهةٌ دونَ جهةٍ[4].

دلالة التَّعبير بـ﴿أَنَّىٰ﴾:

بَيَانُ هَيْئَةِ الْإِتْيَانِ وَزَمَانِهِ إِذَا كَانَ فِي مَحَلِّ الْحَرْثِ

لَمَّا كان قول اللّه تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قد يَفْهَمُ منْهُ واهِمٌ إباحةَ الوَطْءِ في أيِّ محلٍّ شاءَ الزَّوجُ من المحلَّين، وهذا ممَّا يُحْتَاجُ إلى إيضاحٍ، فجاء توضيحُهُ بلفظ الحرث في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ - على ما تقدَّم بيانُهُ آنفا -، فعُلِمَ بهذا أنَّ قوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ تخييرُ الزَّوجِ في الوطْءِ في الهيئات التي يأتي أهلَه عليها على أن لا يُجاوزَ المحلَّ المخصوصَ، فيكون معنى ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ كيف شئتم من الهيئات، أو متى شئتم من الزَّمان[5] سوى ما وردَ التَّنصيصُ على تحريمِه، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/459.
(2) الزركشي، البرهان: 3/67.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/280.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/186.
(5) الإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/113.

دلالـةُ أَنَّى عَـلَى الْعُمُومِ أَنْسَبُ لِمَقَامِ وُرُودِهَا

الاستعمالُ العربيُّ لـ﴿أَنَّىٰ﴾: هو أنَّها تجيءُ سؤالا وإخبارًا على أمرٍ له جهاتٌ، فهي أعمّ في اللُّغة من (كَيْفَ)، و(أَيْنَ)، و(مَتَى)[1]، فهي تجمعُ الكيفيّات، والأحوال، والأزمنة، ولذلك هي أنسبُ لسياق الآية الكريمة، وقد فُسِّرتْ ﴿أَنَّىٰ﴾ في هذه الآية بهذه الألفاظ، وبغيرها، على ما يأتي.

وُجُوهُ تَفْسِيرِ ﴿أَنَّىٰ﴾:

سَـعَـةُ الْمَـعَـانِي وَتَقْيِيدُ الْقَصْدِ

أُضيفَت ﴿أَنَّىٰ﴾ في جملة ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ إلى ﴿شِئْتُمْ﴾، والمَشيئاتُ شَتَّى، ولذا تُؤُوِّلَتْ بوجوهٍ من التَّأويلات، وحاصِلُهَا: كيف شئتم في الأحوال، أو مِن أيِّ وجهٍ أَحْبَبْتُمْ ما دام في محلِّ الولَدِ، أو أين ومن أين شئتم، أو كيف شئتم أن تعزلوا أو لا تعزلوا، أو حيث شئتم، أو متى شئتم[2]، وبالاستفهام، والشَّرط، وجعلوها في الشَّرطية ظرفَ مكانٍ فقط[3]، وكلُّ هذه المعاني على اختلاف العلماء في صِدْقِهَا على ﴿أَنَّىٰ﴾ من عَدَمِه يُقيِّد دِلالة لفظِ الحَرْث بموضع الولَدِ، وإنْ تعدّدت الكيفيّات الموصِلة إليه، ورُجِّحتْ من هذه الوجوه ثلاثةٌ: بمعنى كَيْفَ، وبمعنى مَتَى، والشَّرطية.

تَوْجِيهُ حَمْلِ ﴿أَنَّىٰ﴾ عَلَى (كَيْفَ):

تَـحْـدِيـدُ أَمْـكِـنَـةِ ابْتِدَاءِ الْإِتْيَانِ أَوْ أَمْكِنَةِ الِاسْتِقْرَارِ

﴿أَنَّىٰ﴾ اسمٌ لمكان مُبْهَم، تبيّنه جملةٌ هُوَ مضافٌ إليها، وقد كَثُرَ استعماله مجازًا في معنى (كيف)، بتشبيه حال الشَّيء بمكانه؛ لأنَّ (كيف) اسم للحال المبهمة، يُبَيِّنها عاملُها، نحو ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6][4]، فجِيءَ بـ﴿أَنَّىٰ﴾ المحتملة لِلْكيفيّات ولِلْأَمْكِنَة، وهي أصلٌ في الأمكنة ووردت في الكيفيَّات، فَاحْتَمَلَ كونَها أمكنةَ الوصولِ مِن هذا الإتْيانِ وكيفيّاته، وأمكنةَ استقراره، فأُجْمِلَ في هذا كلّه إجمالا بديعًا[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/299، أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181،
(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/398-415، والماوردي، النكت والعيون: 1/284.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/371.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/372، و374.

توجيهُ حملِ ﴿أَنَّىٰ﴾ عَلَى (مَتَى):

الأَمْرُ بَعْدَ الْحَظْرِ دالٌّ عَلَى الإِبَاحَةِ أَوِ الرُّجوعِ إِلَى الْحُكْمِ الأَوَّلِ قَبلَ النَّهْيِ

الذي يتبادرُ من موقع الآيةِ وتُساعِدُ عليه معاني ألفاظِها أنَّها تذْييلٌ واردٌ بعد النَّهي عَن قربان النِّساء في حال الحَيْض، فتُحمل ﴿أَنَّىٰ﴾ على معنى: مَتَى، ويكون المعنى: فأتوا نساءَكم متى شئتم إذا تطَهَّرن، فَوِزَانُها وزانُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: 2] بعد قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 1][1].

تَوْجِيهُ حَمْلِ ﴿أَنَّىٰ﴾ على الشَّرطيّة:

عُمُومُ الْمَشِيئَةِ فِي إِتْيَانِ الزَّوْجَةِ إِذَا كَانَ فِي مَحَلِّ الوَلَدِ

رجّح أبو حيّان والسَّمين الحلبي أنَّ ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا شرطيَّةٌ؛ لافتقَارِها إلى جملةٍ غيرِ الجُمْلة التي بعدها، ويكونُ قد جُعِلَتْ فيها الأحوالُ وحُذِف جوابُها؛ لدِلالة ما قبله عليه، تقديرُه: أنَّى شِئْتُم فَأْتُوه، ومفعولُ ﴿شِئْتُمْ﴾ محذوفٌ أي: شِئْتُمْ إتيانَه بعد أن يكونَ في المحلِّ المُباح[2].

عِلَّة استبعاد إباحة الوطء في غير القُبل:

مَكَانُ الْحَرْثِ يُنْبِتُ الزَّرْعَ، وَيُدِيمُ بَقَاءَ النَّوعِ

عُلِّلَ عَدَمُ إباحةِ إتيان النِّساء في الأدبار؛ لأنَّ الدُّبر لا مُحْتَرَثَ فيه، وإنَّما قال الله تعالى ذِكْرُه: ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، فأتوا الحَرْث من أيّ وجوهه شئتم في الموضع المأذون فيه[3]، فهو طريق الولادة والتَّنَاسل الذي به بقاء النَّوع الإنسانيّ الذي هو أشرف أنواع الكائنات، فلو لم يكن في النَّهْي عن إتيانِ المحلِّ المكروهِ إلَّا فواتُ هذا الغرض من بقاء النَّوع الإنسانيِّ؛ لكفى به منقصةً وذمًّا؛ لكونه يتضمّن فناء النَّوع[4]؛ لما فيه مِنَ العبث بعدم المنفعة، فالأدبار موضع الفَرث، لا موضع الحَرْث[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/372.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/424.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/416.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/616-617.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/281.

بلاغة الوصل بالعَطْف:

الْـحِـرْصُ عَـلَى الْأَعْـمَـالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْـكَـلَامِ عَـلَى اللَّذَّاتِ الْعَاجِلَةِ

قول الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ أو على جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، من باب عطفِ الإنشاء على الخبر، على أنَّ الجُمْلة المعطوفَ عليها وإن كانت خبرًا؛ فالمقصود منها الأمر بالتَّوْبة والتطهُّر، فكرَّر ذلك اهتمامًا بالحرص على الأعمال الصَّالحة بعدَ الكلام على اللَّذَّاتِ العاجلَةِ[1].

الِانْشِغَالُ بِالْمُبَاحِ لَا يُلْهِي الْعَبْدَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى

وَاللهُ تعالَى إذا أطلق أمرًا مِنَ الشَّهوات الدّنيويَّة لا يُخلي ذكْرَه مِنَ الحثِّ على مُراعاة العُقْبى والتَّقوى؛ لِئلَّا يلحقَ الإنسانَ غفلةٌ عمَّا خُلِقَ لأجْلِه[2]، وللاتّجاه إلى الله بالعبادة، فيكون عملا صالحا يقدِّمونه لأنفسهم.

سِرُّ حَذْفِ الْمَفْعُولِ:

حَـذْفُ الْأَلْـفَـاظِ يُـوَسِّـعُ الْمَـعَـانِي وَيُكَثِّرُ وُجُوهَهَا

مفعولُ ﴿وَقَدِّمُواْ﴾ محذوفٌ إيجازًا، وهو ممَّا يُوسِّعُ دلالاتِ تأْويلِه، فقيلَ في تقديره: قدِّموا ما يَجِبُ تقديمه مِنَ الأعمال الصَّالحة، وما هو خلاف ما نَهَيْتُكُم عنه، أو نيّةَ الإعفاف، أو طلبَ الولد والنّسل، أو التَّسميةَ على الوطء، وذِكْرَ اللَّهِ، أو الخيرَ، كما وردَ التَّصريحُ به في نَظيرِه في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 110][3].

وقوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْۚ﴾ متعلق بـ﴿وَقَدِّمُواْ﴾، واللَّام للعِلَّة، أي: لأجل أنفسكم أي لنفعها[4]، فاللَّامُ تحتملُ التَّعليل والتَّعدّي[5].

دِلَالَةُ جُمْلَةِ الْأَمْرِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

التَّحْرِيضُ عَلَى امْتِثَالِ الشَّرْعِ

لَمَّا كانت أفعالُ الإنسان في الشَّهوات تقرِّب مِن فعْلِ مَن عنده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/374.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/459.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/266، والعكبري، التبيان: 1/179.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/374.
(5) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/425.

شكٌّ؛ احتيجَ إلى مَزيدِ وعْظٍ وتحذيرٍ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اجعلوا بينَكم وبين ما يكرهُهُ الملك الأعظم من ذلك وغيره وقايةً مِنَ الحلال أو المشتبه[1]، وهُوَ تحريضٌ على امتثال الشَّرع بتجنُّب المخالفة، وتحذيرٌ لهم مِن اقترافها، فيدخلُ تحته: التَّخلِّي عَنِ السَّيئات، والتحلِّي بالواجبات والقربات، فمضمونها أعمُّ مِن مضمون جملة: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ﴾، فلذلك كانت هذه تَذْييلا[2]، والعبدُ محتاجٌ إلى أنْ يُقَدِّمَ معهُ ما يقْدَمُ به على اللّه العظيم ممَّا لا يَفْتَضِحُ به عنْدَه؛ وهو العملُ الصَّالح[3].

سِرُّ افْتِتَاحِ الْجُمْلَةِ بِالْفِعْلِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

حَثُّ المُخَاطَبِينَ عَلَى التَّأَمُّلِ

افْتُتِحَت الجُملة بـ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ عنايةً بالخبر الذي بعدَهُ، واستنصاتًا له، واهتمامًا بما يتضمَّنه، وحثًّا للمخاطبين على التَّأمّل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البَليغ أنْ يُفْتَتَحَ بعضُ الجُمَل المشتملة على خبرٍ أو طلبِ فَهْمٍ بـ(اِعْلَمْ) أو (تَعَلَّمْ)؛ لفْتًا لذهْنِ المخاطب[4].

التَّعْرِيضُ بِغَفْلَةِ الْمُخَاطَبِ عَنْ أَمْرٍ مُهِمٍّ

فَمِنَ المعروف أنَّ المُخْبَر أو الطَّالبَ ما يريد إلَّا عِلْمَ المخاطَب، فالتَّصريح بالفعل الدّالّ على طلب العِلْم مقصودٌ لأجل العناية والاهتمام[5].

دِلَالَةُ عَطْفِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قبلها:

زِيَادَةُ الْوَعْظِ جَمْعًا بَيْنَ التَّزْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وذلك لما بين الجملتين من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الإنشائيَّة، ولِمَا بينَهما من المُناسبة الظَّاهرة؛ إذ في كُلٍّ منهما وعظٌ من اللّه تعالى وتحذيرٌ لعبادِهِ وتنبيهٌ لهم، وحسَّنَ الوصلَ اشتمالُ الجملتين على ذِكْرِ اللّه تعالى ضميرًا راجعا إليه واسمًا صريحًا.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/282.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/374.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/182.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375، و9/314.
(5) ابن عاشور، المصدر نفسه: 9/314.

وفي قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ زيادةٌ في الوعْظ مِنْهُ سبحانه وتعالى، وهو جامعٌ التَّحذير والتَّرغيب والتَّنبيه بطلبِ العِلْم، أي: فلاقُوهُ بِمَا يَرْضَى به عَنْكُم؛ لأنّه سائلكُم عَن جميع ما فعلتمُوه مِن دقيقٍ وجليلٍ، وصالحٍ وغيره، فلا تقعوا فيما تسْتحيُون منه إذَا سألكم؛ فهو أجلُّ مِن كلِّ جليلٍ[1].

قصديَّة التَّعْبير بفعل الملاقاة:

الْـحَـثُّ عَـلَى زِيَـادَةِ الِاهْتِمَامِ بِـلِـقَـاءِ الـلـهِ تَعَالَى وَالْعَمَل بِمُقْتَضَاهُ

الملاقاةُ في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾: خبرٌ يقتضي المبالغةَ في التَّحذير، أي: فهو مجازيكم على البِّر والإثم[2]، وهِيَ صيغة مُفاعَلَةٍ مِنَ اللّقاء، وأصلُها: يقتضي الوقوعَ بين شيئين، وفعل (لقيَ) و(لاقى) بمعنى واحد، يقال: لقيتُه ولاقيتُه؛ إذا استقبلته قريبًا منه[3]، إلَّا أنَّ في المفاعلة منه مبالغة ليست في المجرَّدِ.

وإنّما أمرَهُمُ اللّهُ بعلْم أنَّهم ملاقُوه مع أَنَّ المسلمين يعلمون ذلك؛ تنزيلا لعلمهم منزلةَ العدَم في هذا الشَّأن، ليكون ذلك تحريضًا لهم على زيادةِ الاهتمام بهذا المعلوم والتَّنافُسِ فيه[4].

إِرْشَـادُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى إِعْـمَـالِ الـتَّـقْـوَى وَاسْـتِـحْـضَـارِ لِقَاءِ اللهِ تعالَى فِي مُعَامَلَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ

وفيه إشعارٌ بأنَّ أمرَ ما بين الزَّوجين مؤخَّرٌ حُكْمُهُ إلى لقاءِ اللّه ﷻ؛ حِفاظًا على ما بين الزَّوجين ليبقى سِرًّا لا يُظْهِرُ أمرَهُ إلَّا اللّه تعالى، وفي إشعارِه إبقاءٌ لِلْمرُوءة في أنْ لا يحتكِمَ الزَّوجان عند حاكِمٍ في الدُّنيا، وأنْ يرجِعَ كلُّ واحدٍ منهما إلى تقوى اللّهِ وعلمِهِ بلقاءِ اللّه[5].

سرُّ ترتيبِ الجُمَل المتَعاطِفَةِ:

رُتِّبتْ هذه الجُمَل الثَّلاث في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/282، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/300.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/65، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/283.

اسْتِحْضَارُ لِقَاءِ اللهِ تعالى مُثَبِّتٌ لِلنُّفُوسِ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ بمضامينها الدَّالة على فعل الطَّاعات، ثم تركِ المحظورات، وتحمُّلِ مشقَّتِهما، ثُمَّ التَّذكير بيوم البعث والحساب، وأنَّ الفعلَ والتَّرك لأجلهما على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج؛ فإنَّ الظَّاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أوَّلا، ثُمَّ يعقبه الأمر بالتَّقوى، ثُمَّ الأمر بأنَّ يقدِّموا لأنفسهم، فخُولِف الظَّاهر لِلْمُبَادرة بالأمر بالاستعدادِ ليوم الجزاء، وأُعْقِبَ بالأمر بالتَّقوى؛ إشعارًا بأنَّها هي الاستعدادُ، ثُمَّ ذُكِّروا بأنَّهم ملاقو الله، فجاء ذلكَ بمنزلة التَّعليل[1]، فلولا ذلك اليوم لكانَ تحمُّلُ المشقَّة في فعل الطَّاعات وترك المحظورات عبثًا، فما أحسن هذا التَّرتيب![2].

نُكْتَة تَضْعِيفِ فِعْلِ البِشَارة:

عُمُومُ الْبِشَارَةِ وَكَثْرَتُهَا

بين ﴿وَبَشِّرِ﴾ و(أَبْشِرْ) فرقٌ، فإنّ قولك: (بشَّرتُهُ) عامٌّ، و(أَبْشَرتُه)، نحو قولك: أَحْمَدتُهُ، وبشَّرته مضعَّفٌ على إرادةِ معنَى التَّكثير[3].

بَلَاغَةُ التَّعْقِيبِ بِجُمْلَةِ الْبِشَارَةِ:

امْتِثَالُ الْأَحْكَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الْمُسْتَحقِّينَ المدحَ والتَّعظيمَ بتركِهِمُ القبائحَ وفِعْلِهِمُ الحسناتِ[4]، وهو تأنيسٌ لفاعلي البرِّ ومتَّبعي سنن الهدى[5]، وتعقيبٌ للتَّحذير بالبِشارة، والمراد: المؤمنون الكاملون وهم الذين يُسَرُّون بلقاء الله تعالى كما جاء في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»[6]، وذِكْرُ هذه البِشَارة عَقِبَ ما تقدَّم إشارةٌ إلى أنَّ امتثالَ الأحكام المتقدِّمة مِن كمال الإيمان[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/424، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/617.
(3) الراغب، المفردات: (بشر).
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/300.
(6) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: (6507)، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (2683).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.

والجمع بين الوعد والوعيد من طرائق القرآن، ويراد منها رعاية التَّرتيب المعتبر في القرآن، وهو أن يُجعل مع كلِّ وعيدٍ وعدٌ[1].

بَرَاعَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْجَمْعِ إِلَى الإِفْرَادِ:

لتخصيص كمال عـقـل الأوامـــر بأكـمـل الخلق ﷺ، وللمبالغة في التشريف

الضميرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ لِلرَّسول ﷺ لِجَرْي ذِكْره في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾[2]، ولَمَّا كان ما تقدّم من أوامرَ لا يعقلُه حقَّ عقلِه كلُّ أحدٍ، أشار إلى ذلك بالالتفات إلى أكمَلِ الخلق [3]ﷺ، وفي أمره لرسولِه بالتَّبشير تأنيسٌ عظيمٌ، ووعدٌ كريمٌ بالثَّواب الجَزيل[4]، وفيه مع ما في الالتفات مِن تلوين الخطاب وجعلِ المبشِّرِ رسولَ الله ﷺ: المبالغةُ في تشْريف المؤمنين ما لا يخفى[5].

سِرُّ حَذْفِ الْمُبَشَّر بِهِ:

الِاسْتِغْرَاقُ فِي تَخَيّلِ العطايا؛ تَشْوِيقًا لِلْأَنْفُسِ الْمُؤْمِنَةِ

لم يُنَصَّ على المُبَشَّرِ به وهو الثَّواب والكرامة ونحوهما، إمَّا لأنَّه معلومٌ مِنْ نحو قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: 47]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة: 25]، وإمَّا لأنَّ الغرضَ نَفْسُ البِشَارَةِ، مِثْلُ: (فلان يُعْطِي)[6].

وفي حذف المُبَشَّر به والاستغناءِ بالمذكور تعميمٌ لتصوُّر مديدِ المنَح، واستغراق في تخيّل عظيم العطايا؛ لتتشوَّق إليه الأنفس وتتلهَّف إلى مديد هباتِ الله تعالى وهو الجَواد الكريم، ومصداق ذلك ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ في وصف الجَنَّة: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[7].

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/424، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/617.
(2) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/425.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/283.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/183.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/223.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/424، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/617.
(7) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: (3244)، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (2824).

نُكْتَة جَمْع ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بَعْثُ مُشَاهَدَةِ فِعْلِ الْإِيمَانِ وَمُلَازَمَتِهِ فِي الْأَنْفُسِ

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جمعَ مذكَّرٍ سالِمًا، وهو مِن جمع الصّفات التي يخرجها مِن دائرة الدّلالةِ على القلّة إلى الدّلالة على الحدث والقُرْبِ مِنَ الفعليَّة؛ ليبعث في النَّفْس مشاهدةَ فعلِ الإيمان منهم، وملازمتهم له، ومداومتهم عليه حتَّى صار لهم الإيمان كالوصف الرَّاسخ[1]، وفيه تنبيه على الوصف الذي به يُتَّقى اللّه تعالى، ويُستحقُّ عليه التَّبشير؛ وهو الإيمان[2].

حُسْنُ الِابْتِدَاءِ وَالْخِتَامِ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

دِلَالَةُ مَقَاطِعِ الآيَاتِ عَلَى مَطَالِعِهَا

كان ابتداءُ هذه الآيات بالتَّحذير عَن تعاطِي العصْيان، واختتامُها بالتَّبشير لأهلِ الإيمان آياتٍ تَعجزُ عن وصفِ ما تضمَّنته البدائع الألْسُنُ، ويذعنُ لفصاحتها الجِهْبِذ اللَّسِنُ، فقد جمعت بين براعةِ اللَّفظ ونصاعة المعنى، وتناسُبِ الجُمَل وتأنُّق المبنى؛ مِن سؤالٍ وجوابٍ، وتحذيرٍ من عقابٍ، وترغيبٍ في ثوابٍ، فهدتْ إلى الصِّراط المستقيم، وتُلقِّيتْ مِن لدن حكيمٍ عليمٍ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/283.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/183.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»